٤ ـ الحديث الرابع
«القدر السابق والكتابة الرَحميَّة»

عن ابي عبد الرحمن، عبد الله بن مسعود (رضي)، قال: «حدثنا رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم، وهو الصادق المصدوق: «إنّ احدكم يُجْمع خَلقهُ في بطن أمه أربعين يوماً نطفةً، ثم يكونُ علقة مثلَ ذلك، ثم يكونُ مضغةً مثلَ ذلك، ثم يُرسَلُ إليه المَلَكُ، فَيَنْفُخُ فيه الرُوحَ، ويُؤمرُ بأربع كلمات: بِكَتْب رزقه وأجَلِهِ وعَمَلِهِ، وشقيٌ أو سعيدٌ، فواللهِ الذي لا إله غيرُه، إن احدَكم لَيَعملُ بعمل أهل الجنة حتى مايكونَ بينَهُ وبينها الا ذراعٌ، فيسبقُ عليه الكتابُ، فيَعملُ بعمل أهل النار فيدخُلُها، وإنَّ أحدَكم لَيَعملُ بعمل أهل النار، حتى مايكونَ بينه وبينها الا ذراعٌ فَيَسبُق عليه الكتابُ، فيعملُ بعمل أهلِ الجنة فيدخُلُها» رواه البخاري ومسلم.

٢ ـ «الفاظ وروايات أخرى للحديث»:

ورد بلفظ: يجمع خلقه في بطن أمه اربعين يوماً، ثم يكون في ذلك علقه مثل ذلك ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك.

ـ ولفظ مسلم: فوالذي لاإله غيره.[١]

ـ ومن الروايات في غير الصحيحين: ١ـ «ان الله تعالى اذا أراد خلق عبد فجامع الرجل المرأة طار ماؤه في كل عرق وعضو منها، فإذا كان يوم السابع جمعه الله تعالى، ثم احضره في كل عرق له دون آدم ـ واسناده متصل مشهور[٢]

---

(١) شرح مسلم/ للنووي/ ج١٦ ص ١٨٩.

(٢) جامع العلوم ج١ ص ١٠٤.

- وهناك رواية عن ابن مسعود، عنه (ص): «ان النطفة اذا استقرت في الرحم تكون أربعين ليلة نطفة، ثم تكون علقة أربعين ليلة، ثم تكون عظاماً أربعين ليلة، ثم يكسو الله العظام لحماً»[1]
- وفي صحيح مسلم عن حذيفة بن اسيد «اذا مرَّ بالنطفة اثنتان واربعون ليلة بعث الله اليها ملكا، فصوَّرها، وخلق سمعها وبصرها، وجلدها ولحمها، وعظامها، ثم قال: يارب ذكر ام انثى؟ فيقضي ربك ماشاء، ويكتب الملك، ثم يقول: يارب اجله، فيقول ربك مايشاء، ويكتب الملك، ثم يقول: يارب رزقه فيقضي ربك ماشاء، ويكتب الملك، ثم يخرج الملك بالصحيفة في يده، فلا يزيد على ما أمر ولا ينقص»[2]
- وفي الصحيحين عن انس (رضي): «وكل الله بالرحم ملكاً يقول: أي رب نطفة اي رب علقة، اي رب مضغة، فاذا اراد الله ان يقضي خلقاً، قال: يارب أذكر ام انثى؟ اشقي ام سعيد؟ فما الرزق؟ فما الاجل؟ فيكتب كل ذلك في بطن أمه.»[3]
= وهذه الرواية كما ترى توافق الرواية الأصلية، لكن ليس فيها تقدير المدة.
= وفي مسلم: يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر في الرحم باربعين اوخمسة واربعين ليلة، فيقول: يارب أشقي أم سعيد؟ فيكتبان، فيقول أي رب أذكر أم أنثى؟ فيكتبان ويكتب عمله واثره واجله ورزقه، ثم تطوى الصحف فلا يزاد فيها ولا ينقص[4]
- وهناك روايات اخرى كثيرة، راجعها في جامع العلوم.

٣ - سنده ومتنه، ومكانته[5]

* قال ابن رجب: هذا الحديث متفق على صحته، وتلقته الامة بالقبول[6]
* وعده صاحب نظم المتناثر من الاحاديث المتواترة[7]، ولكن ورد في المتن اختلاف

---

(١) السابق ص ١٠٧ بدون تخريج.
(٢) جامع العلوم ج١ ص ١٠٨.
(٣) جامع العلوم ج١ ص ١١٥.
(٤) السابق ص ١١٥.
(٥) روى الحاكم عن احمد بن حنبل -بسنده- أنه قال: ينبغي ان يبدأ بهذه الاحاديث في كل تصنيف فانها اصول الاحاديث، وهي: «الاعمال بالنيات» «ومن أحدث..»، «ان خلق احدكم يجمع..»/ وعن اسحق بن راهويه: اربعة احاديث هي من اصول الدين، وهي الثلاثة السابقة، وحديث «الحلال بيّن..» - انظر جامع العلوم ج١ ص ١٢. (٦) ص ١٠٣ (٧) ص١١٧.

شديد، كان مثاراً لاختلافات وأبحاث كثيرة حول وقت النفخ والتصوير والكتابة والترتيب بين هذه الامور، ومحاولات مختلفة في القديم والحديث للتوفيق بين الروايات من جهة، والتوفيق بين الأحاديث وبين المعلومات التشريحية والطبية كما سنرى.

٤ ـ الشرح:

أ ـ المفردات:

* وهو الصادق: في أقواله، وافعاله واحواله.
* المصدوق: فيما يأتيه من الوحي، او المراد: انه صادق في نفسه، اشارة الى طبيعته كرسول، واشارة الى ما عرف عنه من التحري الشديد للصدق، ثم انه مصدق من الله تعالى ومن خيار عباد الله.
* يُجمع خلقه: تُضمّ مادة خلقه في بطن امه (الرحم)، بعد ان كانت النطفة منتشرة في جميع بدنها، او يجمع بين ماء الرجل والمرأة.
* ثم يكون: يصير * الروح: تذكر وتؤنث * فيسبق: يغلب
* باربع كلمات: قضايا مقدورة (الرزق، الاجل، العمل، شقي أم سعيد).
* إلا ذراع: كناية عن شدة القرب.
* النطفة: الاصل: الماء القليل، والمراد هنا: المني.
* مخلّقة: تامة، وغير مخلقة: ناقصة الخلق، او المراد مصوَّرة وغير مصوّرة (كالسقط).
* العلق: دم جامد، وسميت بذلك لانها حينئذ تعلق بجدار الرحم، ففي المصباح المنير: العلقة: المني ينتقل بعد طوره، فيصير دماً غليظاً متجمداً، ثم ينتقل طوراً، فيصير لحماً، وهو المضغة: والمضغة هي قطعة لحم بمقدار ما يُمضغ.

وبالرجوع الى المؤلفات في علم الاجنة نجد تفسيراً آخر للعلقة وهو: حدوث العلاقة والاندماج بين البويضة والحيوان المنوي[1]. قال الشاعر:

أبيت اللعنَ ان سَكابَ عِلْقٌ: اي حامل، ومعلوم ان الحمل يبدأ من حين اتحاد

---

(١) القرآن والطب/ ص٤٣.

النطفة بالبويضة، وقال تعالى: من نطفة امشاج[1] قال ابن عباس (رضي): ماء الرجل والمرأة حين يختلطان.

وبعد الاندماج تتكون خلية واحدة، وتبدأ بالانقسام على شكل متوالية هندسية، حتى يتجمع عدد كبير من الخلايا داخلها، ويصير شكلها مثل التوتة، ثم تنتظم هذه الخلايا على شكل كرة تسمى «المفلجة»، ولعلها هي المضغة او بداية المضغة، قال الدكتور محمد وصفي: والمضغة هي ابتداء ظهور الانسجة المختلفة للجسم[2]

وقال غيره: والمضغة هي مرحلة تخلّق الجنين واجهزته، وذلك ان المضغة قد وصفها القرآن: بأنها مخلقة وغير مخلقة، فهي اذاً طور التخلق . . . اما العلقة فهي تمثل الطور الذي يعلق فيه الجنين بجدار الرحم حول اليوم الثامن ثم يغوص فيه، ويستمر في الغوص الى ما قبيل اليوم العشرين، فينتهي بذلك طور العلقة ويبدأ طور المضغة الذي يستمر حتى اليوم الستين من عمر الجنين[3].

وقال باحث آخر: ويتخذ الجنين شكل دودة صغيرة طولها ملليمتران، معلقة في جدار الرحم بواسطة الحبل السري، وهكذا يدخل دور العلقة وعمره (٢٠يوماً)[4]

وفي خلال الاسبوع الرابع يبدأ تشكل أجسامنا، وتتحدد الجهات الاصلية للعلقة وفي بداية الشهر الثاني تكون قد امتدت داخل جسم الجنين شبكة من الاوعية الدموية، ويكون تجويف القلب قد امتلأ بخلاصة العناصر الغذائية الواردة من المشيمة، فتسري في جداره رعشة خفيفة، ثم تتكرر، ثم يبدأ عمل القلب والجنينُ في بداية الشهر الثاني لايزال بعيد الشبه بالانسان . . وطوله في مجموعه لايزيد عن نصف سم . . . ثم قبل نهاية الشهر الثاني تمر بالجنين تطورات متلاحقة تبتعد به عن الشكل الضفدعي، وتقترب من اعتاب البشرية، حيث ينكمش الذنب، ويتحدد العنق، ويتخلق الوجه، وتتحول العينان الى مقدمة الوجه . . . ولا توجد اية دلالة خارجية تميّز جنس الجنين قبل نهاية الشهر الثالث، ويستغرق تطور اعضاء التناسل اربعة

---

(١) سورة الدهر/ آية ٢

(٢) القرآن والطب ص ٦٢.

(٣) بحوث في تفسير القرآن م. جمال الدين عياد/ ص٧٤.

(٤) عن مجلة حضارة الاسلام/ السنة الخامسة/ العدد٨، ٩/ ١٣٨٤هـ.

شهور قبل ان تتميز مناسل الذكر عن مناسل الانثى. هذا وان الجنين وعمره ثلاثة شهر يكون قد تم تخلق جميع احشائه واعضائه، وطوله عند ذلك لايزيد على شبر.

ومنذ الشهر الرابع الى ساعة الوضع لا تعتريه تطورات جوهرية غير وضوح جنسه وكبر حجمه.

وقال الدكتور خالص چلبي: وبعد ان اكتمل تكوّن الانسان، ورسمت خريطته بشكل اجمالي في الشهرين الأولين . . . وهو في الشهر الثاني يعتبر في مرحلة المضغة، لان شكل الانسان يبدو وكأنه قطعة لحم ممضوغة، وبعد ذلك التكوّن الاجمالي، يدخل مرحلة الجنين الكامل، حيث تتكامل اعضاؤه[1].

وقال الدكتور محمد وصفي: والمضغة اهم طور من اطوار الجنين في الرحم بعد العلقة، لان الحمل يتم بالعلقة، والمضغة هي ابتداء ظهور الانسجة المختلفة للجسم[2].

ب ـ التراكيب:

* مثل ذلك: أربعين يوماً.
* ثم يرسل اليه الملك: أي يؤمر بالتصرف، وإلا فهو موكل بالرحم من حين كونه نطفة، يقول: يارب مخلقةام غير مخلقه، فان كانت غير مخلقة قذفها في الرحم دماً، وان كانت مخلقة، قال: يارب ذكر ام انثى؟ماالرزق؟ ما الاجل؟ ما العمل؟ بأي أرض تموت؟ فيقال له: انطلق الى اللوح المحفوظ تجد قصة هذه النطفة، فينطلق فيكتبها، أقول: يمكن ان يكون الموكل بالجنين في الرحم اكثر من ملك، ففي صحيح مسلم: اذا مرَّ بالنطفة اثنتان واربعون ليلة . . . . الخ وقد سبق، وهناك رواية اخرى: ان الملك يدخل على النطفة بعدما تستقر في الرحم باربعين او خمسة واربعين ليلة . . . قال ابن رجب وقد جمع بعضهم بين هذه الروايات، وبين حديث الباب: بأن اثبت الكتابة مرتين[3]. او ان نفس الملك يراعي حال النطفة، ويقول في كل طور ما صارت اليه بأمر الله.
* فينفخ فيه الروح: بعد كمال الجسد وتصويره، كما في الاية: فخلقنا المضغة

(١) الطب محراب للايمان ج١ ص٧٨.
(٢) القرآن والطب ص ٦٤.
(٣) جامع العلوم ص ١١٧.

عظاماً، فكسونا العظام لحماً، ثم انشأناه خلقاً آخر[1]. ونحن اذا اخذنا بعين الاعتبار ما سبق نقله عن مجلة الحضارة: من ان القلب يبدأ بالعمل من الشهر الثاني[2]، وما ذكره العلماء: من ان تغذية الجنين بواسطة: جهاز دوري تتم في اليوم العشرين من حياة الجنين[3]، اقول: اذا اخذنا هذه الآراء بعين الاعتبار، فانه يلزمنا أن نتذكر أن للروح اكثر من معنى، فهناك الروح الكيميائية المشتركة بين جميع الحيوانات، وهناك الروح التي هي لطيفة ربانية، قال الغزالي: لفظ القلب يطلق لمعنيين: ١) اللحم الصنوبري الشكل، وهو منبع الروح ومعدنه ٢) لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسماني تعلق، وهو المدرك العالم العارف من الانسان، والروح جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسماني، فينتشر بواسطة العروق الضوارب الى سائر اجزاء البدن . . . الخ[4]، والظاهر على هذا أن النفخ المقصود في الحديث انما هو للروح التي هي من امر الله تعالى، والتي بها يتميز الانسان عن سائر الكائنات الحية.

* وشقي وسعيد: أي هو شقي او سعيد، اي يكتب احدهما، ولم يقل: وشقاوته وسعادته، عطفاً على ماسبق، لانه حكى ما يكتب كما هو.
* فيسبق عليه الكتاب: الذي سبق في علم الله، او في اللوح، او الذي سبق في بطن الام، فالمقادير أربعة وهي: ١) التقدير في علم الله تعالى ٢) في اللوح ٣) في الرحم ٤) سوق المقادير الى المواقيت: اي الى وقت الوقوع[5].
* حتى مايكون: تمثيل وتقريب، وليس المراد حقيقة الذراع، بل الزمن اليسير المتبقي من العمر، وبيان انه مابقي بينه وبين ان يصل الى الآخرة الا كمن بقي بينه وبين موضع من الارض ذراع[6].

---

(١) سورة المؤمنون / آية ١٤.

(٢) خلافاً لما ذكره الدكتور خالص چلبي: من انه يبدأ بعد الشهر الرابع، مع انه يمكن الجمع بين الرأيين اذا عرفنا ان الدكتور خالص قد اورد هذا الرأي تحت عنوان تشخيص الحمل، وان التشخيص، ومعرفة النبض لا يتم الا بعد الشهر الرابع، وعندئذ فلا تعارض.

(٣) بحوث في تفسير القرآن ص ٦٨/ ٦٩

(٤) تهذيب الاحياء ج٢ ص٦.

(٥) شرح الاربعين/ قطر ص ٢٢. (٦) عن شرح مسلم ص ١٩٢ ج١٦.

جـ ـ المعنى الاجمالي:

يقرر هذا الحديث حقيقة، طالما تاهت حيالها العقول، والتبست على ذوي البصائر، فضلا عن غيرهم، الا وهي: ان الرزق، والاجل، والعمل، والشقاوة والسعادة، أمور مقررة على الانسان، وقد جرت فيها المقادير قبل ولادته وخلقه، وانه لن يكون الا ما قدَّر الله من ذلك، وان كلاً ميسر لما خلق الله، وان الانسان يدخل الجنة او النار بعمله هذا الذي يسره الله له بحسب علمه، وبحسب ما ركب في طبيعته «اي الانسان» منذ هو جنين: ان ينساق اليه بارادته التامة، اذ جاء في رواية: فيقول الملك: ماخلقه، ماخلائقه؟ أي طبائعه[1]، وهذا هو القدر المأمورون بالايمان بخيره وشره، وهو الذي انشقت بسبب غموض فهمه فرق عن اهل السنة والجماعة، والسعيد من وفق الى التسليم الواعي، والتوفيق الوثيق بين ارادة الأزل وتكليف الانسان بالعمل.

٥ ـ بعض ما يرشد اليه الحديث:

* استحباب الحلف لتأكيد الامر في النفوس، مع الحذر، من ان يصبح ذلك عادة تدفع الى الحلف دون تثبت، ومن غير موجب، لان ذلك يتنافى مع مقام الربوبية.[2]
* لايجوز الحكم القطعي بدخول الجنة او النار، على شخص بعينه، مهما عمل من اعمال البر او المعاصي، لأن الامر بيد الله، والعبرة بالخواتيم، ولم يكن ذلك الا للرسول (ص).
* لايجوز الاغترار بالاعمال الصالحة، كما لايجوز اليأس من غفران الذنوب مهما عظمت ـ مالم تكن شركاً ـ
* العبرة بالخاتمة، وقصة قزمان والاسرائيلي تشهدان لذلك، فقزمان رغم بلائه في القتال، لكن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر انه من اهل النار، وانتهى أمره

---

(١) جامع العلوم ص ١١٩.

(٢) قال ابن علان في هامش الأذكار/ ص١١٥، معلقاً على حديث حلف فيه النبي ﷺ: فيه جواز الحلف من غير استحلاف لتفخيم ما يخبر به الانسان والمبالغة في صحته وقد كثرت الأحاديث بمثل ذلك.

بذلك، حيث انه يئس من جرحه، فانتحر، وقد ورد تصريحه بان بلاءه كان حمية لقومه، والاسرائيلي حيث حلف لصديقه: ان الله لن يدخله الجنة، فأوبق بذلك دنياه وآخرته[1]، وفي الحديث الصحيح: «انما الاعمال بالخواتيم»[2]

* يُستحب الاكثار من الدعاء المأثور: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، ذلك ان قلوب بني آدم بين اصبعين من اصابع الرحمن، كقلب واحد يصرفه الله حيث يشاء[3]

* المؤمن بالقدر لايكون جباناً، ولا هلوعاً او جزوعاً، كما انه لايكون بخيلا، ولا يهون في سبيل كسب رزقه، لانه يعلم ان الرزق مقدور، وان الاجل محدود، قال تعالى: «ومن يؤمن بالله يهد قلبه»: اي من يصدق بان الله قضاها عليه يهديه للصبر والاسترجاع[4].

* قال النووي: فيه تصريح باثبات القدر، وان التوبة تهدم الذنوب، وان من مات على شيء حكم له به من خير او شر، الا ان اصحاب المعاصي في المشيئة أي: «مصيرهم مرتبط بارادة الله تعالى».[5]

٦ ـ تطبيقات على الحديث

* رخّص طائفة من الفقهاء للمرأة في اسقاط الجنين ما لم ينفخ فيه الروح[6]، ولكن الحنابلة صرحوا بانه اذا صار الولد علقة لم يجز اسقاطه لانه ولد، انعقد بخلاف النطفة فانها لم تنعقد بعد.

* بنى الامام احمد «رحمه الله» مذهبه، على هذا الحديث: في انه اذا سقط الجنين بعد تمام أربعة اشهر صلي عليه ـ صلاة الجنازة ـ حيث كان قد نفخ فيه الروح ثم مات، وحكي مثل ذلك عن سعيد بن المسيب، وهو احد قولي الشافعي (رضي)

---

(١) وقصتهما مشهورة في أحاديث صحيحه/ جامع العلوم ج١ ص١٢٤.

(٢) جامع العلوم / ص١٢٤.

(٣) السابق ص ١٢٧.

(٤) الاكليل/ للسيوطي ص ٢٦٥، تفسير سورة التغابن. (٥) شرح مسلم ج١٦ ص ١٩٢.

(٦) وقاسوا ذلك على العزل، قال ابن رجب: وهو ضعيف، لان الجنين قد انعقد بخلاف العزل ـ انظر: جامع العلوم/ ج١/ ص١٠٦، ١٠٧.

واسحق[1].

* روي عن ابن عباس وسعيد بن المسيب (رضي): ان النفخ يكون في خلال العشرة ايام التي بعد الأربعة اشهر، وهذا هو سبب كون عدة الوفاة أربعة اشهر وعشرة أيام، وقد أكد هذا الرأي الدكتور خالص جلبي، قائلاً: لقد وجد ان الحمل لايشخص بشكل قطعي في الاشهر الاولى، ولكن ابتداء من الشهر الرابع، وما بعده بأيام يبدأ قلب الجنين بالنبض . . . ثم قال: وهنا نجد توافقاً عجيباً بين هذا الرقم وعدة المتوفى عنها زوجها: «بأربعة اشهر وعشرة ايام»[2].

* كان السلف يتخوفون كثيراً من سوء الخاتمة، بسبب هذا الحديث وما في معناه من النصوص، قال سهل التستري: «المريد يخاف ان يبتلى بالمعاصي، والعارف يخاف ان يبتلى بالكفر»[3] ولذا كانوا يكثرون من الدعاء «يامقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك، ويا مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك، واللهم ان كنت كتبتني عندك في ام الكتاب شقيا فامح الله شقاوتي واكتبني عندك في ام الكتاب سعيداً».[4].

* قال في الحكم العطائية: سوابق الهمم لاتخرق أسوار الأقدار: أي مهما اجتهدت، فليس لك الا المقدر عليك[5]

* قال ابن القيم في تفسير آية الانفال: واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه: ان الاستجابة المأمور بها في اول الاية»اصلها بالقلب، فلا تنفع الاستجابة بالبدن دون القلب، والله يعلم مافي القلب، وهل هو موافق لظاهر العمل ام لا، قال وفي الآية سر آخر: وهو انه جمع بين الشرع والامر به «استجيبوا» وبين القدر والايمان به ـ فكأن الحديث مشتق من هذه الآية[6] وقد ورد في تفسير القرطبي على هذه الآية: ان المراد انها اخبار من الله تعالى بأنه املك لقلوب العباد منهم، وانه يحول بينهم وبينها اذا شاء، حتى لايدرك الانسان شيئاً الا بمشيئة

---

(١) السابق ص ١١٤.

(٢) الطب محراب للايمان ج١ ص ٨٩.

(٣) اصطلاحات صوفية، والمريد والعارف مراحل سلوكية عند المتصوّفة.

(٤) جامع العلوم ج١ ص ١٢٦.

(٥) ص٢.

(٦) سورة الانفال الآية ٢٤

الله عز وجل.[1]

* وفي الفوائد : اساس كل خير ان تعلم: ان ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فتوقن حينئذ: ان الحسنات من نعمه، فتشكره عليها، وتتضرع اليه أن لا يقطعها عنك، وان السيئات من خذلانه وعقوبته، فتبتهل إليه ان يحول بينك وبينها، ولا يكلك الى نفسك[2].

* وفي الحكم العطائية : جَلَّ حكمُ الأزَل ان ينضاف الى العِلَل[3]. اي ان الله تعالى هو الذي يخلق ويقدر الشيء عند وجود سببه، وليس السبب هو الذي يوجد المسبَّب حتماً، وهذه الحكمة بمعنى الحكمة السابقة؛ وقد نشأ حول هذه القضية خلاف شديد في تحديد مدى اثر السبب.

* وما أحسن ما جمع به ابن عطاء الله بين القدر وكسب العبد في الحكمة التالية: علم «سبحانه» ان العباد يتشوَّقون الى ظهور سر العناية، فقال: «يختصّ برحمته من يشاء»، وعلم ـ سبحانه ـ انه لو خلّاهم وذلك، لتركوا العمل، اعتماداً على الأزل، فقال: ان رحمة الله قريب من المحسنين، ولا يخفى: ان تدبّر هذه الحكمة وحسن تأمّلها يفتح أعسر مغاليق القدر[4].

* قال ابن رجب: الخواتيم ميراث السوابق[5].

* وفي ميزان العمل للغزالي: اعلم ان التوفيق هو الذي لا يستغنى عنه الانسان في كل حال، ومعناه: موافقة ارادة الانسان وفعله قضاء الله وقدره، قال الشاعر:

اذا لم يكن عون من الله للفتى فاكثر ما يجنى عليه اجتهاده[6].

* ومن هنا نلاحظ مدى مناقضة هذا الحديث لقول ابي القاسم الشابي الذي كاد أن يصبح امراً مسلماً عند الكثيرين، رغم ان ابا القاسم قاله بقصد استنهاض الهمم ضد الاستعمار[7]، وقد سمعت جملة من أغنية عبر إذاعة إحدى الدول العربية في حرب حزيران تقول: ميراج طيارك هرب والميج تتحدى القدر !!،

---

(١) تفسير القرطبي ج٧/ تفسير سورة الانفال ص ٣٩١.

(٢) الفوائد لابن القيم ص ٩٧. (٣) ص ٣٦.

(٤) الحكم ص ٣٧.

(٥) جامع العلوم ص ١٢٤. (٧) أعني قوله:

(٦) وفي رواية «فأول» ـ ميزان العمل ص ١٠١. اذا الشعبُ يوماً أراد الحياة : فلا بد أن يستجيب القدر

فمثل هذه الآراء تتعارض مع الايمان بالقدر مهما كانت نية قائلها.

* قال النووي: من لطف الله، وسعة رحمته ان انقلاب الناس من الشر الى الخير في كَثْرة، واما انقلابهم من الخير الى الشر ففي غاية القلة[1].

* وقد أفرد باباً بعنوان: «بيان ان الآجال والارزاق لا تزيد ولا تنقص عما سبق به القدر[2].

* روي ان علياً (رضي) قال: كنا في جنازة، في بقيع الغرقد، فأتانا النبي عليه السلام، فقعد وقعدنا حوله.. ثم قال: ما منكم من أحد الا قد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة، فقالوا: يا رسول الله، افلا نتكل على كتابنا؟ فقال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له[3].

* اورد ابن تيمية الحديث، ثم قال: فبيَّن ﷺ: ان هذا يدخل الجنة بالعمل الذي يختم له به، وهذا يدخل النار بالعمل الذي يختم له به.. لان جميع الحسنات تحبط بالردة، وجميع السيئات تكفر بالتوبه، قال ابن تيمية: ونظير ذلك: من صام ثم أفطر قبل الغروب[4].

* جرى بحث وحوار بين علماء الطب وعلماء الشريعة حول موضوعات مختلف فيها، ومن ذلك: موضوع: الاجهاض العمد، واليك ما كتبته لجنة الصياغة في هذا الصدد:

استعرضت الندوة آراء الفقهاء السابقين.. وانهم اجمعوا على تحريم الاجهاض بعد نفخ الروح - اي بعد أربعة أشهر - وان آراءهم في الاجهاض قبل نفخ الروح اختلفت، فمنهم من حرمه باطلاق او كراهة، ومنهم من حرمه بعد أربعين يوماً، واجازه قبل ذلك، وقد استأنست اللجنة بمعطيات الحقائق العلمية الطبية المعاصرة... فخلصت الى: ان الجنين حيّ من بداية الحمل، وان حياته محترمة في كافة ادوارها، وبخاصة بعد نفخ الروح[5].

---

(١) شرح مسلم. ج١٦ ص ١٩٢.

(٢) السابق ص ٢١٢

(٣) الاذكار/ ص١٤٧.

(٤) رسالة الوصية الكبرى في مجموعة رسائله ص ٣٧٤، ٣٧٥.

(٥) مجلة العربي/ العدد ٣٠٥/١٩٨٤م.

* فسر ابن علان في هامش الاذكار قوله ﷺ: يا مقلب القلوب، بقوله: اي إلى ما سبق به قدره من السعادة والشقاوة»[1]

٧ ـ مناقشة عامة حول الحديث :

س١) ما الحكمة من خلق الجنين على اطوار. حـ١ ـ تسهيل الحمل.

س٢) كيف يدخل الملك الجسم من غير شعور به؟ ج٢ ـ لأن الملائكة مخلوقات نورانية.

س٣) متى يتم النفخ ؟ حـ٣ ـ بعد كمال تخلق الجسد وتصويره.

س٤) كيف توفق بين ما في الحديث من نسبة النفخ الى الملك، وفي القرآن: النافخ هو الله تعالى. حـ٤ ـ ان نفخ الملك في الصورة سبب، يوجد الله عنده فيها الروح، والروح مخلوقة قبل جسمها بزمن كبير [2].

س٥) أيهما أسبق: الكتب ام النفخ ؟

حـ٥ ـ ظاهر رواية البخاري: الكتب: «ويبعث اليه الملك، فيؤمر باربع كلمات، ثم ينفخ فيه الروح»[3]. وفي رواية خرجها البيهقي: ثم يبعث الملك، فينفخ فيه الروح، ثم يؤمر بأربع كلمات، وظاهرها يشير الى ان النفخ أسبق[4]، وقد مرت رواية مسلم « في روايات اخرى للحديث»، وهي تقتضي ان الكتابة اسبق من النفخ. وسواء قلنا: ان الكتابة مرة واحدة كما رجح ابن رجب، وانما تختلف باختلاف الأجنة، بمعنى ان بعضهم يكتب له بعد الأربعين الاولى، والبعض بعد الثالثة [5]، او قلنا: انها اكثر من مرة، فان النفخ يكون بعد الكتابة، لا سيما وان ذلك الخبر وارد برواية البخاري، ثم إن نتائج العلم تؤكده كما سبق، ويبقى ان ننظر فيما تقتضيه عبارة رواية ابن مسعود «التي عنوناً بها هذا الباب هنا»: انها وردت بصيغة الواو، وهي لا تقتضي الترتيب فلا اشكال ولا تعارض.

---

(١) الأذكار / ص ١٨٧.

(٢) شرح الشرنوبي / ص ١٣.

(٣) جامع العلوم ص ١١٧. (٤) السابق ص ١١٣. (٥) السابق ص ١١٧.

س٦) كيف توفق بين ما في الحديث، وبين ما في الآية: (انا لا نضيع أجر من أحسن عملاً).

حـ ٦ ـ ما في الآية معلق على شرط القبول ـ كما يفهم من قوله: أحسن، اي ان من أحسن العمل: بالاخلاص لا يختم له الا بالخير، ويشهد لهذا التوجيه: رواية: ان الرجل ليعمل بعمل اهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من اهل النار» اي فيما يُظهر للناس من صلاح مع فساد باطنه[١]، وتمامه: وان الرحل ليعمل بعمل اهل النار فيما يبدو للناس، وهو من اهل الجنة»[٢].

ويؤيد ذلك ويوضحه قصة قزمان، وذلك ان الصحابة (رضى) قالوا: ما أجزأ منا اليوم احد كما أجزأ فلان، فقال ﷺ: هو من اهل النار. . . ولما انتحر قزمان بعد ذلك، واخبر النبي ﷺ بذلك قال: ان الرجل ليعمل. . الحديث[٣]، قال ابن رجب: قوله فيما يبدو للناس: اشارة الى ان باطن الأمر يكون بخلاف ذلك، وان خاتمة السوء تكون بسبب دسيسة باطنة للعبد لا يطلع عليها الناس. . وكذلك قد يعمل الرجل عمل اهل النار وفي باطنه خصلة خفية من خصال الخير، فتغلب عليه في آخر عمره، فتوجب له حسن الخاتمة[٤]، نسأل الله ان يختم لنا بالصالحات.

س٧) هل يجوز الاحتجاج بالقدر السابق؟

حـ٧ ـ اذا وقع المقدور وكان خيراً، فينبغي ان نذكر ذلك لنعرف فضل الله ونشكره، وان كان شراً، فينبغي ايضاً أن نذكره، لنستلهم من ذلك الصبر وعدم الجزع، أما قبل وقوع المقدور، فلا يجوز الاحتجاج به على ترك الأمر الشرعي، أو معارضته به، وعلى هذا يحمل قول الشيخ ابن تيمية في رسالة الوصية الكبرى: القدر ليس حجة لاحد على الله، ولا على خلقه، ومن احتج به ضارع المشركين[٥]، وذلك اشارة الى قول الله تعالى عنهم مثلاً: «واذا قيل لهم انفقوا مما رزقكم الله، قال الذين كفروا للذين آمنوا: انطعم من لو يشاء الله اطعمه. .»[٦]. فهم قد احتجوا بالمشيئة على ترك امتثال امر الله تعالى في الانفاق. وقوله

---

(١) شرح الشرنوبي/ ص ١٣. (٢) شرح مسلم ص ١٩٩. ج١٦.

(٣) جامع العلوم ج١ ص ١٢٤. (٤) السابق ص ١٢٤.

(٥) ص ٣٥٣ وانظر أيضاً رسالته في الاحتجاج بالقدر ففيها تحقيق جيد لا يستغني عنه طالب الحق.

(٦) آية ٤٧ من سورة يس.

تعالى: «واذا فعلوا فاحشة قالوا: وجدنا عليها آباءنا والله امرنا بها...»[1]. وقوله تعالى: «لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا، ولا حرمنا من دونه من شيء..»[2]، ثم كيف يُحتج بما هو غيب؟!.

س٨) اذكر حديثاً يدل على القدر السابق حـ٨ ـ عن عمرو بن العاص، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: كتب الله مقادير الخلائق قبل ان يخلق السموات والارض بخمسين الف سنة»[3]

٨ ـ إشكالان واردان على الحديث :

الاشكال الاول : قوله في الحديث: ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ظاهره: ان طور العلقة يستمر أربعين يوماً، وطور المضغة كذلك، فيكون مجموع الاطوار التي يتم بعدها نفخ الروح ١٢٠ يوماً، وهذا موافق لما توصل اليه علم الأجنة، كما بينت في التطبيقات، ولكن الاشكال يكمن في تحديد كل طور من الاطوار الثلاثة باربعين يوماً، وهذا الاشكال يرجع الى امرين: **الاول**: ورود الفاظ حتى عن ابن مسعود راويه، مغايرة لهذا التحديد، كما سبق، **والثاني**: ما توصل اليه العلم، ولا سيما في عصر التصوير بالاشعة والتصوير التلفزيوني، وتقدم أجهزة التشريح والتشخيص، اما فيما يتعلق بالامر الأول، فقد ذكرت بعض الروايات، واليك بعضاً آخر منها: «فاذا كان يوم السابع جمعه الله»[4]

وقد حاول العلماء قديما وحديثا ازالة هذا الاشكال والتوفيق بين الروايات، وإليك طرفاً من هذه المحاولات: قال ابن رجب: حمل بعضهم الحديث على ان الجنين يغلب عليه في الاربعين الأولى وصف المنى، وفي الاربعين الثانية وصف العلقة، وفي الاربعين الثالثة وصف المضغة، وان كانت خلقته قد تمّت وتم تصويره، وليس في الحديث ذكر وقت تصوير الجنين[5].

---

(١) سورة الاعراف آية ٢٨.

(٢) سورة النحل / آية ٣٥.

(٣) شرح مسلم ج١٦ ص٢٠٣ .

(٤) جامع العلوم/ ص١٠٤. (٥) السابق ص ١٠٩.

وتعرض الاستاذ جمال الدين عياد للاشكال، فقال: والباحث في معنى العلقة عندما يصل الى هذه المرحلة من البحث يستوقفه حديث وارد في الصحيح، فيه ما يخالف ما انتهينا اليه: من ان مرحلة العلقة تبدأ في اليوم الثامن وتنتهي قبيل اليوم العشرين، وان مرحلة المضغة تبدأ في اليوم العشرين وتنتهي في اليوم الستين، ثم قال: المخرج من هذا الاشكال: ان ثمة أحاديث صحيحة اخرى تخالفه في المتن والاسناد، وقد تصدى لمحاولة النووي التوفيقية: بان حمل هذه الاحاديث على غير ظاهرها، وخطّأه في ذلك الحمل استناداً الى حقائق العلم... ثم رأى ان يختار ترجيح رواية مسلم: اذا مر بالنطفة ٤٢ ليلة... لموافقتها للحقائق العلمية[1].

وأقول أنا في معالجة هذا الاشكال: الظاهر ان النبي ﷺ لم يرد ان يضع حدوداً فاصلة بين كل طور وآخر، وانما اراد بيان مدة نفخ الروح وأنها بعد ١٢٠ يوماً، يشير الى ذلك قوله: مثل ذلك» في كل طور، فليس القصود تحديد المدة، انما المقصود هو ما بعد القسم: فوالله الذي لا إله الا هو...، فهذا المقصود ليس مرتباً إلا على مجموع الاطوار الثلاثة، والرسول عليه السلام ليس معنياً بتحديد المدة لكل طور، لان ذلك يدخل في غير مجالات اختصاصه، **وهو تبليغ الرسالة**، شأنه في هذا المجال، شأنه في حادثة تأبير النخل، وقوله عليه السلام، على اثرها: «انتم اعلم بأمور دنياكم»، حينما عملوا برأيه فلم يثمر النخل الا شيصاً[2]، وحينما سئل النبي عليه السلام عن أمر مشابه، وهو تعليل مسألة الاذكار والتأنيث حينما سأله عنها يهودي، واجابه: بانه اذا علا مَنِيُّ الرجل مني المرأه.. أذْكر باذن الله، واذا انعكس أنَّث، فقال اليهودي: صدقت وإنك لنَبيّ.

اورد ذلك ابن القيم ثم عقب عليه بقوله: ليس من الشرط ان يكون مفهوم الحديث محققاً لموضوع الذكورة والانوثة، ويبقى الامر لله تعالى بان يعلو احد المنيين على الآخر، ولا أحد يمكنه ان يزعم امكانية التحكم بعلو احد المائين على الآخر[3] وحينما اورد السيد محمد قطب حديث: انتم اعلم بامور دنياكم» مع قصته، عقب قائلا: تلك قصة الحديث، وهي واضحة الدلالة فيما تركه عليه

---

(١) بحوث في تفسير القرآن ص ٧٦.

(٢) ثمراً رديئاً.

(٣) عن مجلة العربي/ العدد ٢٥٧/ ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠/ ص٣٨ د. محمد مروان السبع.

السلام للناس من امور يتصرفون فيها بمعرفتهم لانهم اعلم بها واخبر بدقائقها، انها المسائل العلمية الفنية التطبيقية التي تتناولها خبرة الناس في الارض منقطعة عن العقيدة والشريعة[1].

ونحن اذا رجعنا الى الآيات التي تحدثت عن اطوار الجنين وجدناها تنحو هذا المنحى، فتارة تذكر ٧ أطوار، وتارة لا تذكر الا طوراً واحداً، **ويتفاوت** عدد الاطوار بين هذين الطرفين، مما يؤكد ما ذهبت إليه: من عدم إرادة دقة التحديد الزمني للأطوار، وانما محل العبرة والبلاغ هو المقصود[2].

الاشكال الثاني: الحديث يفيد ان الأمور قد فرغ منها قبل خلق السموات والارض بخمسين ألف سنة، وانه لا يزيد عليها ولا ينقص منها كما جاء مصرحاًبذلك في رواية صحيحة[3]، وهناك نصوص اخرى من القرآن والسنة، وآثار الصحابة والتابعين تشير الى ان التغير في المقدور امر وارد، وعلى ذلك حمل البعض: قوله تعالى: يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب»، وتعميم المحو على قضية الرزق والاجل والسعادة والشقاوة[4].

وبعد أن بين الدكتور ابو شهبة الراجح المراد من الآية: وهو نسخ الشرائع أو معجزات الانبياء، قال: وأحب أن أقرر: أن العلماء مجمعون على ان ما في علم الله لا يتغير بأي حال، بما في ذلك علمه بالشقاء والسعادة، والاجل، والرزق، واللوح هو صورة مما في علم الله، لا يتأتى فيه تغيير ايضاً، وهذا هو الذي عليه الجمهور سلفا وخلفاً، والظاهر ان المراد من النصوص المفيدة للمحو: حث المكلف على الاقبال على الطاعات وترك المعاصي[5]، وأقول: أما ما ورد من أن «صلة الرحم تزيد العمر»، فمما ورد في تأويله: أن يكون في علم الله: أنَّ هذا الرجل إنْ وصل رحمه عاش مائة سنة مثلا وإلا ثمانين»[6].

---

(١) قبسات من الرسول / ص ١٨٥.

(٢) قال الشاطبي: ان ما يتوقف عليه معرفة المطلوب قد يكون له طريق تقريبي يليق بالجمهور.. الخ الموافقات ج١ ص٢٥. ولعلّ ما في حديث ابن مسعود هو من قبيل التقريب لا التحديد.

(٣) راجع ما سبق.

(٤) مجلة رابطة العالم الاسلامي في مكة/ العدد٦، / السنة الثامنة/١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م/ص١٠، ١١. / مقال للدكتور محمد محمد ابو شهبة. (٥) السابق ص ١٢. (٦) الفقيه والمتفقه. ج٢ ص ٣١٦.